

﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[التوبة: 82]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الإخبار عما
يؤول إليه حال
المنافقين في
الدارين بحسب
جنس أعمالهم
السابقة

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَرَحِ بِالْقُعُودِ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَرَاهِيَّتِهِمْ لِلْجِهَادِ مَعَهُ وَتَنْبِيْطِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، جَاءَ الْأَمْرُ إِلَيْهِمْ بِقَلَّةِ الضَّحِكِ فِي الْحَالِ وَكَثْرَةِ الْبُكَاءِ فِي الْمَالِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ، وَتَسْتَوْجِبُهُ جَرِيْمَتُهُمْ، وَلَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ مَا فَاتَهُمْ - بِالتَّخْلُفِ وَالْخِلَافِ - مِنْ أَجْرٍ، وَمَا سَيَحْمِلُونَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ وَزْرِ، وَمَا يُلَاقُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ خِزْيٍ وَضُرٍّ.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿فَلْيُضْحَكُوا﴾: أَصْلُ الضَّحِكِ: انْبِسَاطُ الْوَجْهِ وَتَكْثُرُ الْأَسْنَانِ مِنْ سُرُورِ النَّفْسِ. وَاسْتَعِيرَ الضَّحِكُ لِلسُّخْرِيَةِ، فَقِيلَ: ضَحَكَتُ مِنْهُ، وَرَجُلٌ ضَحَكَةٌ: يَضْحَكُ مِنَ النَّاسِ، وَضَحَكَةٌ: لِمَنْ يُضْحَكُ مِنْهُ⁽¹⁾. وَالضَّحَكَةُ: الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ⁽²⁾. الضَّحِكُ يَخْتَصُّ بِالْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ يَوْجَدُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: 43]⁽³⁾. وَالضَّحِكُ الْمَقْصُودُ فِي الْآيَةِ: كَيْفِيَّةُ فِي الْفَمِ تَتِمَّدُ مِنْهَا الشَّفَتَانِ وَرُبَّمَا اسْفَرَّتَا عَنِ الْأَسْنَانِ، وَهِيَ حَالَةٌ تَعْرِضُ عِنْدَ السُّرُورِ وَالتَّعَجُّبِ مِنَ الْحُسْنِ⁽⁴⁾.

(2) ﴿وَلْيَبْكُوا﴾: أَصْلُ الْبُكَاءِ: خُرُوجُ الْمَائِعِ مِنَ الْجَوْفِ قَلِيلًا قَلِيلًا، يُقَالُ: بَكَتْ عَيْنُهُ تَبْكِي بُكَاءً، أَيْ: خَرَجَ دَمْعُهَا، وَبَكَتِ السَّمَاءُ

(1) الرَّاغِب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (ضحك).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضحك).

(3) الرَّاغِب، المفردات: (ضحك).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/282.

أَيَّ: أَمْطَرْتُ⁽¹⁾، وهو أيضاً: سَيْلَانُ الدُّمُوعِ بِسَبَبِ حُزْنٍ وَنَحْوِهِ⁽²⁾، وَمَنْهُ الْبَكْيُ، وَهُوَ: شَجَرٌ أَوْ نَبْتُ إِذَا قُطِعَ خَرَجَ مِنْهُ سَائِلٌ أَبْيَضٌ، وَالتَّبَاكِي: تَكَلُّفُ الْبُكَاءِ، وَتَبَاكَى الشَّخْصُ إِذَا تَظَاهَرَ بِالْبُكَاءِ، وَالبَكْيُ: الْكَثِيرُ الْبُكَاءِ، عَلَى فَعِيلٍ⁽³⁾. وَالْمَقْصُودُ بِالْبُكَاءِ فِي الْآيَةِ: كَيْفِيَّةٌ فِي الْوَجْهِ وَالْعَيْنَيْنِ تَنْقَبِضُ بِهَا الْوَجَنَتَانِ وَالْأَسَارِيرُ وَالْأَنْفُ. وَيَسِيلُ بِهَا الدَّمْعُ مِنَ الْعَيْنَيْنِ، وَذَلِكَ يَعْزِضُ عِنْدَ الْحُزْنِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوِمَةِ الْغَلَبِ⁽⁴⁾.
 (3) ﴿يَكْسِبُونَ﴾: أَصْلُ الْكَسْبِ: يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ. يُقَالُ: كَسَبْتُ الشَّيْءَ، أَيَّ: طَلَبْتُهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ طَلَبُ الرِّزْقِ كَسْبًا وَاكْتِسَابًا⁽⁵⁾. وَالْكَسْبُ يُقَالُ فِيهِمَا أَخَذَهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، فَيُقَالُ: كَسَبْتُ فُلَانًا كَذَا، وَالْإِكْتِسَابُ لَا يُقَالُ إِلَّا فِيهِمَا اسْتَفْدَتْهُ لِنَفْسِكَ، فَكُلُّ اكْتِسَابٍ كَسْبٌ، وَلَيْسَ كُلُّ كَسْبٍ اكْتِسَابًا⁽⁶⁾. وَيَأْتِي الْكَسْبُ بِمَعْنَى الشَّيْءِ الْمَكْتَسَبِ، وَجَمْعُهُ: مَكَاسِبٌ. وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الْجَرَحِ، أَيَّ: فِعْلُ الشَّيْءِ بِالْجَارِحَةِ، وَالْكَوَاسِبُ: الْجَوَارِحُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ⁽⁷⁾. وَالْمَقْصُودُ بِالْكَسْبِ فِي الْآيَةِ: مَا يَنَالُهُ الْمَرْءُ مَرَّةً بَسْعِيهِ.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يَتَوَعَّدُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ فِي الْآيَةِ، بِأَنَّهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا وَضَحَكُوا طَوَالَ أَعْمَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بُكَائِهِمْ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ وَالْآخِرَةُ بَاقِيَةٌ، وَالْمُنْقَطِعُ الْفَانِي قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّائِمِ الْبَاقِي⁽⁸⁾.

الْوَعِيدُ بِسُوءِ
مَصِيرِ الْمُنَافِقِينَ،
وَالْإِخْبَارُ عَنْ
عَاجِلِ أَمْرِهِمْ
وَأَجَلِهِ

(1) جبل، للعجم الاشتقاقِيّ لِلْمُؤَصَّلِ: (بكى).

(2) الأزهرِيّ، تهذيب اللُّغة: (بكا).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (بكى).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/282.

(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كسب).

(6) الزَّائِج، المفردات: (كسب).

(7) الجوهريّ، الصَّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).

(8) طنطاوِيّ، التفسير الوسيط: 6/367.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيُضْحَكُوا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيُضْحَكُوا﴾ للإفصاح، لأنها تُفصِحُ عن شرطٍ مُقدَّر؛ لأنَّ المعنى العام: إذا كانوا قد فروا مِنَ الغزوةِ اتقاءً للحُرِّ في الوقتِ القصير، وأهمَلوا ما يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ الأشدَّ الَّذي يكونُ جزاءَ التَّخَلُّفِ، فَقَدْ اسْتَبَدَّلُوا البُكَاءَ الطَّوِيلَ بِضَحِكٍ قَلِيلٍ⁽¹⁾.

وقيل: لِسَبَبِيَّةٍ ما سَبَقَ لِلإِخْبَارِ بِما ذَكَرَ مِنَ الضَّحِكِ والبُكَاءِ لَا لِنَفْسِهِمَا؛ إذْ لَا يَتَصَوَّرُ السَّبَبِيَّةُ فِي الْأَوَّلِ أَصْلًا⁽²⁾.

دلالة اللام في الفعل: ﴿فَلْيُضْحَكُوا﴾:

اللام في قوله ﷺ: ﴿فَلْيُضْحَكُوا﴾ لامُ الأَمْرِ، والصُّورَةُ وإنْ كَانَ ظَاهِرُهَا أَمْرًا، لَكِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ إِبْخَارٌ عَمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ حَالُهُمْ حِينَ يَبْدُو لَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، بِمَعَايِنَةِ جَهَنَّمَ، ثُمَّ مُوَاجَهَةِ مَصِيرِهِمْ فِيهَا.

سرُّ العدولِ عَنِ الأَمْرِ بِصِغَةِ (افْعَل) إِلَى لامِ الأَمْرِ:

إنَّ العدولَ عَنِ الأَمْرِ الصَّرِيحِ بِصِغَةِ (افْعَل) إِلَى صِغَةِ المضارعِ الْمَسْبُوقِ بِلامِ الأَمْرِ - فَضْلًا عَنِ كَوْنِهِ يَدُلُّ عَلَى حَتْمِيَّةِ وَقُوعِ الْمَطْلُوبِ، فَيَسْتَرِكُ فِي ذَلِكَ مَعَ ما تُفِيدُهُ صِغَةُ الأَمْرِ (افْعَل) - فَإِنَّهُ يُضَيِّفُ كَذَلِكَ بُعْدًا آخَرَ، وَيُفِيدُ مَعْنَى لَا تُفِيدُهُ صِغَةُ الطَّلَبِ (افْعَل)، وَهُوَ إِفَادَةُ تَجَدُّدِ وَقُوعِ الْفِعْلِ الْمَطْلُوبِ وَتَكَرُّرِهِ.

فالآيَةُ إِبْخَارٌ عَمَّا يؤولُ إِلَيْهِ حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَيْ: فَسَيُضْحَكُونَ قَلِيلًا، وَيَبْكُونَ كَثِيرًا؛ إِلَّا أَنَّهُ أَخْرَجَهُ عَلَى صِغَةِ الأَمْرِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ حَتْمٌ وَاجِبٌ، لَا يَكُونُ غَيْرُهُ، وَعَلَى تَحْتُمُّ وَقُوعِ الْمُخْبَرِ بِهِ؛ فَإِنَّ أَمْرَ الأَمْرِ الْمُطَاعِ مِمَّا لَا يَكَادُ يَتَخَلَّفُ عَنْهُ الْمَأْمُورُ⁽³⁾.

لَا يَسْتَبْدِلُ
الْعَاقِلُ الْبُكَاءَ
الطَّوِيلَ بِضَحِكٍ
قَلِيلٍ

لَامُ الأَمْرِ تُحِيلُ
الْمُضَارِعَ إِلَى
الأَمْرِ، وَالْأَمْرُ
لِلتَّرْتُّبِ عَلَيْهَا فِي
مَعْنَى الإِخْبَارِ

الْجَمْعُ بَيْنَ
خُصُوصِيَّةِ طَلَبِ
الْفِعْلِ، وَتَكَرُّرِهِ
وَتَجَدُّدِهِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3394.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/88.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/89.

وأيضًا فَإِنَّ لَفْظَ (اضْحَكُوا) فِعْلٌ كَلَامِيٌّ طَلَبِيٌّ مُبَاشَرٌ، غَرَضُهُ
الإنجَازِيُّ التَّهْدِيدُ، تَضَمَّنَ قُوَّةَ إنْجَازِيَّةٍ حَرْفِيَّةٍ بِدخولِ لامِ الأمرِ.
سُرَّ العدولُ عَنِ الإِخْبَارِ إِلَى الإنْشاءِ فِي مَعْنَى الإِخْبَارِ فِي الجُمْلَتَيْنِ:
﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾:

ذلك أَنَّهُ قد يُقَالُ: لَمْ يَمْ يَخْبَرْ مُبَاشَرَةً عَنْ ضَحِكِهِمْ قَلِيلًا،
وَبُكَائِهِمْ كَثِيرًا، فيَقُولُ: (فَسَيَضْحَكُونَ قَلِيلًا وَيَبْكُونَ كَثِيرًا).
فالجوابُ عَنْ هذا: إِنَّ ورودَ الخبرِ فِي صورةِ الإنْشاءِ يَدُلُّ على
حَتْمِيَّةِ وقوعِهِ، تَمَامًا كَمَا أَنَّ مَجِيءَ الإنْشاءِ فِي صورةِ الخبرِ يَدُلُّ
على المبالغةِ فِي وجوبِهِ والامْتِثَالِ لَهُ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ قد وَقَعَ.
إِضافةً إِلَى ما تَقَدَّمَ، هُنَاكَ فَائِدَةٌ أُخْرَى؛ وَهِيَ: الِاتِّعَادُ بالخَبَرِ
عَنْ تَأْوِيلِهِ بِغَيْرِ ما دَلَّتْ عَلَيْهِ صِيغَةُ الإنْشاءِ؛ لِأَنَّ الصِّيغَةَ الإنْشَائِيَّةَ
لِذَاتِهَا لَا تَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ⁽¹⁾.

أَمَّا الخبرُ مِنْ حَيْثُ هُوَ خَبَرٌ، فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ
غَيْرَ وَارِدٍ فِي أَخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا صادِرَةٌ عَنْ لَمْ لَا يَكْذِبُ،
لَا مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا أَخْبَارًا. وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الخبرَ الوَارِدَ بِالصِّيغَةِ الطَّلَبِيَّةِ
يَكْتَسِبُ هذا البُعْدَ الَّذِي لَا يُفِيدُهُ الخبرُ المَحْضُ.

سُرَّ العدولُ عَنِ (فَلْيَفْرَحُوا) إِلَى ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾:

الضَّحْكُ: رَدُّ فِعْلٍ خَارِجِيٍّ عَلَى مَوْقِفٍ مُحَدَّدٍ أَوْ شَيْءٍ آخَرَ، وَلَهُ
هُنَا إِحْدَى دَلَالَتَيْنِ؛ كَوْنُهُ كِنَايَةً عَنِ الفَرَحِ، أَوْ أَنَّهُ أُرِيدَ ضَحِكُهُمْ فَرَحًا
لِاعْتِقَادِهِمْ تَرْوِيجَ حِيلَتِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أذِنَ لَهُمْ بِالتَّخَلُّفِ⁽²⁾،
وَلَكِنَّ مَالَهُ إِلَى خِلَافِ ما ظَهَرَ فِي الآخِرَةِ.

الخِلَافُ فِي إِغْرَابِ ﴿قَلِيلًا﴾ وَ﴿كَثِيرًا﴾ وَأَثَرُهُ عَلَى المَعْنَى:

قَوْلُهُ ﷺ ﴿قَلِيلًا﴾، وَ﴿كَثِيرًا﴾ فِيهِمَا وَجْهَانِ: أَظْهَرُهُمَا: أَنَّهُمَا

حَتْمِيَّةٌ وَقُوعٌ مَا
تَوَعَّدَ بِهِ الْمَوْتَى

ﷺ

النَّكْتُ لَا تَتَزَاخَمُ

إِشَارَ لَفْظِ
الضَّحِكِ لِقَصْدِ
تَقْرِيرِ اللَّذَاتِ
العَاجِلَةِ وَالرُّدُودِ
العَارِضَةِ

(1) الشَّهَابُ الْخَفَاجِي، حَاشِيَةُ الشَّهَابِ: 4/350.

(2) ابْنُ عَاشُور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 10/282.

تَعَدُّدُ الْمَعَانِي
بِتَعَاوُرِ الْمَصْدَرِيَّةِ
أَوْ الْإِضَافَةِ
جَمْعًا بَيْنَ كَثْرَةِ
الْبُكَاءِ وَقِلَّةِ
الضَّحِكِ

عَطْفُ التَّلَازِمَاتِ
لِتَبَيَانِ حُصُولِهَا
حُثْمًا عَلَى
الدَّوَامِ

الْقَصْدُ إِلَى
الْخُسْرَانِ
بِمُقَابَلَةِ الضَّحِكِ
لِلْبُكَاءِ، وَالْقَلِيلِ
لِلْكَثِيرِ

الْجَمْعُ بَيْنَ دَلَالَةِ
الْفَاءِ لِتَقْرِيرِ
السَّبَبِيَّةِ، وَبَيْنَ
جَمَالِيَّةِ الْجَمْعِ
بَيْنَ الْمُتَضَادِّينِ
عَطْفًا

مَنْصُوبَانِ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيُّ: ضَحِكًا قَلِيلًا وَبُكَاءً كَثِيرًا؛ فَحَذَفَ
الموصوف، وهو أَحَدُ الْمَوَاضِعِ الْمَطْرُودِ فِيهَا حَذْفُ الْمَوْصُوفِ وَإِقَامَةُ
الصِّفَةِ مَقَامَهُ مُقَامَهُ⁽¹⁾.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمَا مَنْصُوبَانِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ الزَّمَانِيَّةِ، أَيُّ: زَمَانًا قَلِيلًا،
وَزَمَانًا كَثِيرًا، وَالْأَوَّلُ أَوَّلَى؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الْمَصْدَرِ بِشَيْئَيْنِ: بِلَفْظِهِ
وَمَعْنَاهُ، بِخِلَافِ ظَرْفِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِلَفْظِهِ، بَلْ بِهَيْئَتِهِ الْخَاصَّةِ⁽²⁾.

فَائِدَةٌ عَطْفِ جُمْلَةٍ: «وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا»:

عطف جُمْلَةٍ «وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا» عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ عَطْفِ اللَّازِمِ عَلَى
الْمَلْزُومِ، فَالْأَمْرُ بِالضَّحِكِ وَبِالْبُكَاءِ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِخْبَارِ بِحُصُولِهِمَا
قَطْعًا؛ إِذْ جُمِلَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، أَوْ هُوَ أَمْرٌ تَكْوِينٌ مِثْلُ قَوْلِهِ: «فَقَالَ لَهُمُ
اللَّهُ مُوتُوا» [البقرة: 243]، وَالْمَعْنَى أَنَّ فَرَحَهُمْ زَائِلٌ وَأَنَّ بُكَاءَهُمْ دَائِمٌ مِنْ
غَيْرِ انْفِكَافٍ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ جُمْلَةَ «وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا» مَعْطُوفَةٌ عَلَى:
«فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا»؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّيْمُومَةِ⁽³⁾.

بَلَدَغَةُ الْمُقَابَلَةِ: «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا»، «وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا»:

مِنْ الْمُحْسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ سَوْقُ مَعْنِيَيْنِ، فَأَتَى
بِالضَّحِكِ وَالْقِلَّةِ، ثُمَّ بِمَا يُقَابِلُهُمَا مِنَ الْبُكَاءِ وَالْكَثَرَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ،
وَلَا شَكَّ أَنَّ مُقَابَلَةَ حَالِهِمْ فِي قِلَّةِ ضَحِكِهِمْ بِحَالِهِمْ فِي كَثَرَةِ بُكَائِهِمْ
يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ خُسْرَانِهِمْ وَشِدَّةِ جَهْلِهِمْ.

سِرُّ دُخُولِ الْفَاءِ فِي الْفِعْلِ الْأَوَّلِ، وَعَدَمُ دُخُولِهِ فِي الْآخَرِ:

دَخَلَتِ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ ﷻ: «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» لِلْكَشْفِ عَنْ سَبَبِيَّةِ
مَا سَبَقَ لِلْإِخْبَارِ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ لَا لِنَفْسِهِمَا، إِذْ لَا
يَتَصَوَّرُ السَّبَبِيَّةُ فِي الْأَوَّلِ أَصْلًا⁽⁴⁾.

(1) ابن عادل، اللُّبَابُ فِي عُلُومِ الْكِتَابِ: 10/160.

(2) ابن عادل، اللُّبَابُ فِي عُلُومِ الْكِتَابِ: 10/160.

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 10/282.

(4) الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْعَانِي: 5/340.

وبما أنَّ الجملتين اتَّفَقَتَا إِنْشَاءً، ووُجِدَ الجامع بينهما - وهو اتِّحَادُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِيهِمَا، وَتَنَاسُبُ الْمُسْنَدَيْنِ لِمَا بَيْنَ الضَّحِكِ والبُكَاءِ من التَّضَادِّ مَعَ عَدَمِ وجودِ مانعٍ من العَطْفِ - أثرُ البيانِ القرآنيُّ الجَمْعُ بَيْنَ الجملتين بحرفِ العَطْفِ؛ والحالُ أنَّ التَّضَادَّ جهةٌ جامعةٌ لأنَّ التَّضَادَّ عِنْدَ الْوَهْمِ كالتضائيفِ عِنْدَ الْعَقْلِ، فكما لَا يَنفَكُ أَحَدُ الْمُتَضَائِفَيْنِ عَنِ الْآخَرِ عِنْدَ الْعَقْلِ كَذَلِكَ لَا يَنفَكُ أَحَدُ الْمُتَضَادَّيْنِ عَنِ الْآخَرِ عِنْدَ الْوَهْمِ؛ ولذلك الارتباطُ الوهميُّ تَجِدُ الضَّدَّ أَقْرَبَ حُضُورًا فِي الْبَالِ مَعَ الضَّدِّ الْآخَرِ مِنْ سَائِرِ الْمَغَايِرَاتِ.

بَلَدَعَةُ الْكِنَايَةِ:

بيانُ ذلك: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّحِكُ كِنَايَةً عَنِ الْفَرَحِ والبُكَاءِ كِنَايَةً عَنِ الْغَمِّ، وَالْأَوَّلُ فِي الدُّنْيَا وَالثَّانِي فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا، وَالْقِلَّةُ عَلَى مَا يَتَبَادَرُ مِنْهَا، وَلَا حَاجَةَ إِلَى حَمْلِهَا عَلَى الْعَدَمِ كَمَا حُمِلَتْ الْكَثْرَةُ عَلَى الدَّوَامِ⁽¹⁾.

بَلَدَعَةُ خُرُوجِ الْخَبَرِ عَلَى هَيْئَةِ الْإِنْشَاءِ (الْأَمْرِ):

هَذَانِ الْأَمْرَانِ مَعْنَاهُمَا الْخَبَرُ، وَالْمَعْنَى: سَيَضْحَكُونَ قَلِيلًا وَيَبْكُونَ كَثِيرًا، وَإِنَّمَا جِيءَ بِهِمَا عَلَى لَفْظِ الْأَمْرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مَحْتَوٍ لَا يَكُونُ غَيْرُهُ؛⁽²⁾ وَذَلِكَ لِأَنَّ صِيغَةَ الْأَمْرِ لِلْوُجُوبِ فِي الْأَصْلِ وَالْأَكْثَرِ، فَاسْتَعْمِلَ فِي لَازِمِ مَعْنَاهُ، أَوْ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ الصَّدَقَ وَالْكَذِبَ بِخِلَافِ الْخَبَرِ⁽³⁾.

وَقِيلَ: إِنَّ الْأَمَرَ فِي الْآيَةِ جَاءَ بِمَعْنَى الْخَبَرِ، لِأَنَّهُ إِنْذَارٌ بِالْجَزَاءِ لَا تَكْلِيفٍ، وَفِي فَائِدَةِ هَذَا التَّعْبِيرِ عَنِ الْخَبَرِ بِالْإِنْشَاءِ دَلَالَتُهُ عَلَى حَتْمِيَّتِهِ، فَهُوَ لَا يَحْتَمِلُ الصَّدَقَ وَالْكَذِبَ لِذَاتِهِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْخَبَرِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَمْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْإِجَابِ، وَهُوَ حَتْمٌ.

دَلَالَةُ (الضَّحِكِ)
عَلَى الْفَرَحِ،
وَالْبُكَاءِ عَلَى
الْغَمِّ، كِنَايَةً

عَبَّرَ عَنِ الْخَبَرِ
بِالْأَمْرِ لِإِفَادَةِ
لُزُومِهِ وَوُجُوبِهِ
مُبَالَغَةً

الْعُدُولُ بِالْخَبَرِ
إِلَى قَصْدِ
الْإِنْشَاءِ لِتَقْرِيرِ
الْحَتْمِ الَّذِي لَا
يَحْتَمِلُ الصَّدَقَ
وَالْكَذِبَ

(1) الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْعَالِي: 5/340.

(2) الشُّوكَانِيُّ، فَتْحُ الْقَدِيرِ: 2/442.

(3) الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْعَالِي: 5/340.

تَقْرِيرُ مُقْتَضَى
الْإِنْشَاءِ بِالْخَبَرِ
يُؤْذِنُ بِحُثْمِيَّةِ
وَقَوِّعِ الْفِعْلِ

الدَّلَالَةُ عَلَى
وَعِيدِ الضَّحِكِ
الْقَلِيلِ وَالْبُكَاءِ
الْكَثِيرِ

الْعُقُوبَاتُ فِي كُلِّ
بَابٍ مِنْ جِنْسٍ
مَا اكْتَسَبَ
الْعِبَادُ

الدَّلَالَاتُ
الْإِشَارِيَّةُ الْمُؤَذِّنَةُ
بِعُمْرِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ

ويمكن أن يُقال: إنَّ الأمرَ بما ذُكرَ يَتَضَمَّنُ الإخبارَ بِسَبَبِهِ فيكون مؤكِّداً للخبرِ ببناءِ الحُكمِ عليه، ويُقابله التَّعبيرُ عَنِ الأمرِ بِصِيغَةِ الْخَبَرِ لِلتَّفَاوُلِ بِمَضْمُونِهِ كَأَنَّهُ وَقَعَ بِالْفِعْلِ⁽¹⁾.

إِعْرَابُ كَلِمَةِ ﴿جَزَاءٌ﴾ ودلالاتها:

(جَزَاءٌ) مَفْعُولٌ لَهُ لِلْفِعْلِ الثَّانِي، أَي: لِيَبْكُوا جَزَاءً، أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ لِلْفِعْلَيْنِ، أَوْ مَصْدَرٌ مِنَ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ حُذِفَ نَاصِبُهُ؛ أَي: يُجْزَوْنَ مِمَّا ذُكِرَ مِنَ الْبُكَاءِ الْكَثِيرِ أَوْ مِنْهُ وَمِنَ الضَّحِكِ الْقَلِيلِ جَزَاءً بِمَا اسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي⁽²⁾.

سُرْأَخِيصَاسِ سُورَةِ التَّوْبَةِ بِمَجِيءِ ﴿جَزَاءٌ﴾ قَبْلَ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

مِنَ اللَّطَائِفِ الْمُنْثَوْرَةِ عَلَى هَامِشِ ذِكْرِ الْجَزَاءِ مُرْتَبِطًا بِمَا كَسَبَ الْمُنَافِقُونَ، الْقَصْدُ إِلَى بَيَانِ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسٍ مَا اكْتَسَبَ هَؤُلَاءِ؛ فَقَوْلُ ضَحِكُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْحَرَمَانِ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ تَحْرِيرِ مُسَمَّى الْارْتِبَاطِ السَّبَبِيِّ بَيْنَهُمَا.

وَمِنَ النُّكْتِ كَذَلِكَ: أَنَّ تَقْدِيمَ الْجَزَاءِ عَلَى مَا اكْتَسَبَ لَمْ يَوْقَتْ إِلَّا مَعَ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي أَنَّهُمْ كَسَبُوا بِتَقْلُتِهِمْ مِنَ الدِّينِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَيْ قَيْدٌ أَوْ حَظَرٌ، أَمَّا تَقْدِيمُ الْجَزَاءِ عَلَى الْعَمَلِ، فَلَمْ يَأْتِ إِلَّا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: 17).

الإِشَارَةُ إِلَى عُمْرِ الدُّنْيَا وَعُمْرِ الْآخِرَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

روى: أَنَّ أَهْلَ النَّفَاقِ يَكُونُونَ فِي النَّارِ عُمْرَ الدُّنْيَا، لَا يَرَقَأُ لَهُمْ دَمْعٌ، وَلَا يَكْتَحِلُونَ بِنَوْمٍ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مُدَّةِ الْعُمْرِ فِي الدُّنْيَا، وَقَوْلَهُ: ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى تَأْيِيدِ الْخُلُودِ⁽³⁾.

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/492.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/89.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/475.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ للسببية، أي: جزاء على استمرار نفاقهم وفسقهم⁽¹⁾. وقيل: للإلصاق، والبدلية⁽²⁾.

ما يترتب على دلالة (ما) من المعنى:

(ما) اسم موصول، أو مصدرية⁽³⁾، واختيرت في التعبير عما كانوا يكسبون، وهو أعمال نفاقهم، لأنها أشمل مع الإيجاز⁽⁴⁾.

فائدة دخول (كان):

أُثْبِتَ أفعالهم لهم بأبلغ وجه؛ إذ أُسْنِدَت إِلَيْهِمْ بِصِغَةِ الْكَوْنِ الماضي، الدال على تمكن النفاق منهم منذ زمان مضى⁽⁵⁾.

إيثار لفظ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ دون مرادفاته:

قوله: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ نص في أن التكسب هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب⁽⁶⁾.

ثم إن الأصل اللغوي للكسب يدل على ابتغاء وطلب وإصابة، وهو فيما يتحرراه الإنسان مما يجلب له النفع، وقد يستعمل فيما تُظَنُّ منفعته، لكنه في حقيقته مضرّة؛ وقوله تعالى ها هنا تهديد للمنافقين الفرحين بقعودهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، بأن يضحكوا في هذه الدنيا الفانية، فإنهم سيَبكون طويلاً في الآخرة جزاء ما كسبوه من الانهماك في اللذات والسُرور بالشهوات والمعاصي، فقد ظنّ المنافقون المتخلفون أن في قعودهم عن الجهاد تحصيلًا للراحة والطمأنينة، لكن ما ظنّوه خيرًا قادهم إلى ذل

دلالة الباء على
سببية الجزاء

الدلالة على
عموم معاصي
المنافقين إيجازاً

دلالة (كان) على
تمكّن النفاق من
المنافقين

ملازمة الكسب
لعدالة الجزاء
الترتب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/74.

(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 10/157.

(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 10/157.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/282.

(5) التحرير والتنوير: 10/262.

(6) مجبر الدين القدسي، فتح الزحمن: 3/222.

الدُّنْيَا وَخَسَارَةَ الْآخِرَةِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ التَّعْبِيرُ بِـ **﴿يَكْسِبُونَ﴾** هُوَ التَّعْبِيرُ الْأَمْثَلُ عَنْ فِعْلِهِمْ.

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأحقاف: 14] و[الواقعة: 24]، فَوُرِدَ فِي سِيَاقِ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَقَامُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ، وَالفِعْلُ **﴿يَعْمَلُونَ﴾** يَعْمُ كُلُّ فِعْلٍ يُفْعَلُ فِي أَصْلِ دَلَالَتِهِ اللَّغَوِيَّةِ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ أَمْ الْجَوَارِحِ، كَمَا لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ قَصْدٍ، وَبَعْدَ فِكْرِ وَرَوِيَّةٍ، وَيَقْتَرِنُ الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ، وَلِهَذَا عَرَّفَهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: الْعَمَلُ مَا دُبِّرَ بِالْعِلْمِ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي الْمُخْتَصَّةُ بِ(الْعَمَلِ) تَتَلَاءَمُ مَعَ مَا قَدَّمَهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنْ صَالِحَاتٍ، فَقَدْ حَقَّقَ الْمُؤْعِدُونَ بِالْجَزَاءِ الْمَذْكُورِ فِي آيَتِي الْأَحْقَافِ وَالْوَاقِعَةِ الْإِيْمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى بِالْقَلْبِ وَصَدَّقْتَهُ الْجَوَارِحُ، وَكَانَ مَا قَدَّمُوهُ مِنْ عَمَلٍ صَادِرًا عَنْ نِيَّةٍ صَحِيحَةٍ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ طَاعَتِهِ؛ لِذَا اخْتَصَّتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ بِلَفْظِ **﴿يَعْمَلُونَ﴾** دُونَ (يَكْسِبُونَ) الدَّالِّ عَلَى تَحَرِّيِ النَّفْعِ دُونَ أَنْ يُشْتَرَطَ حُصُولُهُ عَنْ قَصْدٍ وَرَوِيَّةٍ.

دَلَالَةُ صِيغَةِ الْمُضَارِعِ:

جَاءَ التَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالتَّكْرُرِ، ⁽¹⁾ أَيْ اسْتِمْرَارِ هَذَا الَّذِي كَانُوا يَكْسِبُونَهُ، وَتَجَدُّدِهِ أَنَا بَعْدَ أَنْ كَلَّمَا كَانَ أَمْرٌ جَامِعٌ، وَكَلَّمَا بَدَأَ نِفَاقُهُمُ الْمُسْتَمِرَّ ⁽²⁾.

❁ الْفُرُوقُ الْمُجْمَعِيَّةُ:

الْكَسْبُ وَالْعَمَلُ:

الْكَسْبُ يُسْتَعْمَلُ فِيمَا يُتَحَرَّى نَفْعُهُ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِيهِ، وَقَدْ يُطْلَقُ إِطْلَاقًا أَعْمً لِيَشْمَلَ: "الْفِعْلَ الْعَائِدَ عَلَى فَاعِلِهِ بِنَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ" ⁽³⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/262.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3395.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 137.

تَجَدُّدُ خِصَالِ
لِلْمُنَافِقِينَ بِتَجَدُّدِ
الْأَحْداثِ
وَالْوَقَائِعِ

الْكَسْبُ يُقَالُ
بِاغْتِبَارِ النَّتَائِجِ،
وَالْعَمَلُ يَعْمُ

أَمَّا الْعَمَلُ فَيَعْمُ كُلُّ فِعْلٍ يُفْعَلُ، وَلَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ قَصْدٍ⁽¹⁾. وَعَلَى هَذَا؛
فَالْكَسْبُ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى نَتِيجَةِ مَضْمُونِهِ، أَمَّا الْعَمَلُ فَيُطْلَقُ عَلَى
مُجَرَّدِ الْفِعْلِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي إِطْلَاقِهِ لِحَظُ نَتَائِجِهِ.

البكاء والصراخ والصياح والتألم:

البكاء هو: "انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن
شوق"⁽²⁾، ويكون بدمع العين فقط، أو مع صوت يسير خفيف، وجاء:
أن البكى بالقصر: خروج الدمع من العين بلا صوت، والبكاء بالمد:
خروج الدمع مع الصوت، قال الشاعر:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا *** وَمَا يُعْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ⁽³⁾

والصياح رفع الصوت بما لا معنى له، وربما قيل للنداء صياح⁽⁴⁾.
والصراخ: صياح حاد نافذ، كذلك الصوت الذي يكاد يخرق
الأذن، ومنه: أصرخه: أغاثه⁽⁵⁾.

ومنه قوله تعالى عن أهل جهنم: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: 37]، أي: يصيحون بشدة.
والتألم: التوجع، والأليم: المؤلم الموجع، فإن الألم ضد اللذة. وقد
عرّف الحكماء اللذة: بأنها الخلاص من الألم⁽⁶⁾.

البكاء دموع
ورقة، والصياح
رفع الصوت بلا
معنى، والصراخ
شدة الصياح
وارتفاع الصوت،
والتألم التوجع

(1) الزاغب، المفردات: (عمل).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/235.

(3) البيت من بحر الوافر، لعب بن مالك، وهو في الديوان، ص: 252، ينظر: للبرد، الكامل: 2/221، وابن منظور، لسان العرب: (بكي).

(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 325.

(5) جبل، للمعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرخ).

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/271.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع

القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 17، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-14-2

يشتمل على ارجاعات ببلليوجرافية.

مج. 17: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

التقييم الدولي: 978-9948-768-14-2

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»